"كشفوك"

عبد الهادي رويس

1

(جمال) الآن شاب يعيش عيشة عادية؛ مصاب بالربو طيلة الوقت، لا يعرف شيئا اسمه صديق، لو كان له واحد لكان (سليم)، (سليم) الذي درس معه طيلة سني الدراسة في الأيام الخوالي.. من الابتدائية حتى الثانوي، كانا قريبين من بعضهما البعض لكن تفرقا بعد أن استكمل (سليم) دراسته الطبية في الكلية، وهو انصرف من الدراسة مكرما، لقد أثبت أنه جدير بالصدارة في المدرسة لكن لم يُقدر له استكمال دراسته، لقد أصبحت المدرسة بالنسبة إليه شيئا بغيضا. كيف يمكن لهذا العلم الجميل الحسن اللطيف ؟ ! أن يصبح أسئلة غبية تُسأل وأجوبة على طبق القيء تُقىء، مثل ما حدث مع سارتر حين ذهب لأداء امتحان الفلسفة ليحصل على درجة علمية فرسب، لماذا؟ فقط لأنه لم يتقيأ عليهم. بعد ذلك عاد وأدى الاختبار واستعمل نهج التدريس الفاشل فنجح بتقدير امتياز. عندما شعر (جمال) بعدم إمكان استكماله للدراسة، انصرف.. لكنه لم ينقطع نفَسا عن التعلم والدراسة منذ حياة الطفولة وحال الصبا، إنه يحب العلوم والآداب بمختلف أنواعها؛ حبه الأول كان الدين، لقد نشأ في أسرة محافظة.. كان لوالده مكتبة صغيرة كانت هي بدايات قراءاته في العلوم الدينية، كانت تلك الكتب من الكتب الرائجة في أوساط ناس الصحوة، لقد نشأ (جمال) في عصر الصحوة، العجيب أنه لم يتقيد بجمع دون جمع، لقد شرب عصيرا مسموما ميكس: سلفية على إخوان على العدل والإحسان على أوقاف على تصوف.. إن (جمال) منذ صغره لا يحب التفرقة، إنه يحب الإسلام وحده لا غير، ولا يعترف بفِرق هنا أو هناك. ماذا أعطتنا هذه الجماعات؟! غير البغض بين عباد الله والتمزق بين المسلمين! فترى السلفي لا يحدث إماما من الأوقاف و عدليا في صدره ضيق من السلفيين والعكس و صوفيا مبغوضا... إلخ. عاش (جمال) سني طفولته ومراهقته مع هؤلاء ؛ لم يفرق بينهم حتى جاء يوم البينونة فتركهم .

*****

تسبب هذا العصير المسموم في فقدان (جمال) لاتزانه، لقد أصيب باضطراب الوسواس القهري، تلك الأفكار التي كان يتلقاها من الصغر حول تغيير العالم نحو الخلافة التي تحكم العالم؛ ولباس القميص القصير، والعمل بتنطع، ذلك كله ساهم في تهاوي نفسيته. اضطرابه نشأ من عدة أسباب ومنها هذا التدين المنكوس الذي كان يتلقاه من هؤلاء المتدينين.. سواء واقعا أو على صبيب الفضائيات التي كانت رائجة في ذلك الوقت. كيف يمكن لفتى يافع يقرأ مذكرات أدب السجون بالخصوص سجون عبد الناصر، وما فيها من العذاب الأليم، مع تلك النفس الطُلعة التي عنده والتي تتشوف إلى إزالة الظلم وتغيير العالم ولو بعد حين، كيف يمكن له أن يبقى على اتزانه بله على طمأنينته. طبيعي أن يصاب (جمال) بذلك الوسواس الذي أفسد عليه حياته، كان دائم التفكير في تغيير العالم وتوحيده على الدين الصحيح، كان همه أن يأمر الناس بالمعروف وأن ينهاهم عن المنكر، كان يتوق لتحرير فلسطين... كان وكان. هذه الأشياء كلها تجمعت فعملت بلوك لذاك الطفل المراهق، خصوصا أنه كان من مدمني العادة السرية التي لم يتركها منذ صباه الباكر، صدق فرويد: العصابيون يفعلون العادة السرية ويكتشفونها وهم ما زالوا صغارا قبل العاديين ربما من سن السنتين بطريقتهم، تحدث فرويد عن حبس البراز وفعلا كان (جمال) يحبس البراز، تحدث عن السؤال عن من أين يأتي الأولاد؟ وفعلا سأل هذا السؤال ولم تكن الإجابة مقنعة.

*****

تعلم (جمال) من هذا الاضطراب الكثير، لقد خلصه من كسله وأصبح قارئا نهما، لقد مكنه هذا الاضطراب من قراءة الكتب الجسيمة وإتمامها الشيء الذي لم يكن ليفعله لو كان إنسانا عاديا، الاضطراب رغم بشاعته إلا أنه جعله أكثر قربى من الله؛ حيث وجهه إلى اللوذ بالله والاعتصام به، وقد قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن

قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) الأمم لم تتضرع لكن (جمال) تضرع فهداه الله وشفاه.

*****

2

(جمال) الآن، ابن الثلاثين سنة، تغير كثيرا، لقد خرجت تلك الأفكار من أدراجه.. تعلم شيئا اسمه استحالة توحيد العالم على شيء؛ وأن الخلافة مجرد هراء، لا يمكن أن يجتمع الناس في الأقصى والأدنى على الإسلام؛ وأن تحكمهم طائفة اسمها الإخوان التي مرت سنون وسنون ولم يحققوا شيئا سوى السجون والجنون والعذاب وغصب الناس حياتهم، إن فكرة الخلافة على منهاج النبوة فكرة مسمومة، روجها بعض الناس، الله أعلم بنياتهم، لا يمكن أن يكون الناس أمة واحدة. إنما هي أفكار تدغدغ خيال الإسلاميين ليصلوا للسلطة والله أعلم بالنيات، لكن في الواقع لم تكن هنالك خلافة بالمعنى الذي يقصده الحركيون؛ ولن تكون، انطلاقا من سنة الله في الحياة، بحيث لا يزال الناس مختلفين ولذلك نحن مخلوقين، ولو شاء الله لجعلنا أمة واحدة، إضافة أن الأمة لم تكن يوما تحت حكم أجمع عليه الناس فما هي إلا سنوات حتى بدأت الهنات، وحتى بعض الصحابة كانت لهم غفوات وزلات.

قال (سليم): لماذا لا تعد لصفوف الدراسة؟ فقط عُد لتحصل على تلك الشهادة الحقيرة لتكون لك رياسة في المجتمع.

قال له (جمال): أنا الآن أكثر نضجا ويمكنني العودة لكني لا أريد لأني لا أستطيع.

_ لماذا لا تستطيع؟ أليست تلك الوساوس قد ولّت؟ !

_ بلى لكني لا يمكن أن أتقيد بنهج في الدراسة لا يروق لي، إضافة إلى أن الدراسة إن أصبحت مفروضة أصبحت مرفوضة.

_ حسنا يمكنك فعل ما تشاء، لكن ماذا ستفعل لتحصل على رزقك؟ ألا تفكر في الزواج؟

_ الكثير أصبح يرشحني للزواج وأنا لا أملك فلسا. كيف يمكنني أن أتزوج؟! وقصوري الذي استصحبته من صغري لا زال يرافقني، نعم الوساوس ولّت لكن القصور ما زال باقيا.

_ لكن لكل واحد منا خطة في الحياة، فما هي خطتك وكيف تنوي قضاء حياتك؟

_ إنني بارع في الكتابة، وأنا الآن أكتب مجموعة قصصية اسمها "كشفوك" وأرجو أن تنال إعجاب الناس، إنني مولع بالقراءة وبالتالي الكتابة، وحلمي الأكبر أن أصير كاتبا كبيرا.

_ حسنا يا صديقي، يبدو أنك تفكر في تأثير كبير، ولديك أحلام سرية كبرى لا علم لنا بها، سددك الله وأكرم مثواك.

_ شكرا لك يا (سليم) فقد مرت سنون منذ الثانوي ولم نلتق لكن كانت بيننا صلة روحية فالأرواح جنود مجندة، ونتفاهم كثيرا، وكنا دائما على اتصال بوساطة الفيسبوك.

*****

3

يكتب (جمال) مجموعة "كشفوك" وهي المجموعة الأولى التي ستخطها يده، بعد أن كان يكتب مقالات وقصص متناثرة على الأنترنت لسنوات، المجموعة جميلة كتب في بداية قصتها الأولى التي هيمنت على الباقين وأخذت المجموعة عنوانها: "كشفوك" . كتب عن: "بطل اسمه (راشد) مصاب بالربو طيلة الوقت، ولا يعرف صديقا سوى (سليمان) رغم عدم الاتصال به منذ الثانوي إلا على الفيسبوك، ترك الدراسة في حين استكملها (سليمان) الذي حصل على الدكتوراه من كلية الطب، انصرف (راشد) من المدرسة مكرما، انصرف لأنه لا يريد لذلك العلم الجذاب الأخاذ.. أن يصبح حفظا للدروس.. تلقن كالتعليمات العسكرية ثم تُقىء على ورقة الامتحان. العلم جميل ولا يجب تدنيسه بطرق التلقين التي كرّهت التلاميذ في الدراسة؛ حتى أصبح الفرد منهم يشعر وكأن حملا ثقيلا أزاحه عندما تأتي العطلة، وحملا يعاد حمله حين تبدأ الدراسة، العون لكم يا طلبة وتلاميذ. كان (راشد) منذ الطفولة مولعا بالكتب والقراءة، لذلك انكب على مكتبة أبيه الصغيرة والتي كان فيها تنظير أناس الصحوة، فكان يقرأ والذهن اليافع يستقبل؛ حتى خارت قوى ذلك الصبي فمرت سنون وأصيب بالوسواس القهري، كان يسمع من الواقع والفضائيات ليل نهار ويقرأ من الكتب الدينَ المتنطع والأحلام بالخلافة الراشدة الهبلى. كما أنه ابتلي بالعادة السرية منذ وقته الباكر ربما منذ أن كانت عنده سنتين؛ لم يكن يعرف وهو صغير أنه يقوم بالعادة السرية؛ كان يفعلها ليزيل التوتر فقط، بعد أن كبر علم أن العصابيين يعرفون ميولهم الجنسية مبكرا حتى ولو لم يدركوا ماهيتها؛ وكان يحبس البراز كما قرأ عند فرويد فكان تَعجُّبه كبيرا: مطابقة تامة بين العصابي الفرويدي و(راشد). لم يكن هذا الاضطراب نقمة على (راشد) بل تعلم منه الكثير حيث أصبح يقرأ بشراهة وعرف قيمة الصحة وأصبح أكثر قربى من الله، فالحمد لله. أصبح يعلم يقينا أن الخلافة أمر غير متاح فارتاح، كما أن الخلافة الأولى كان فيها هنات وزلات. سأله (سليمان) لماذا لا يعود لصفوف الدراسة بعد أن ولت

تلك الوساوس، فرد عليه أنه لا يستطيع وأخبره أنه كاتب بارع وحلمه أن يصبح مقروءا كبيرا وهو الآن يكتب مجموعة "كشفوك" ".

*****

4

ذهب (جمال) عند أخته (مروى) في المدينة التي تعمل فيها، إنها مهندسة كبيرة، تعيش حياة رغيدة في أحد الأحياء الراقية بالمدينة الكبيرة، لم يخرج (جمال) من مدينته طيلة حياته إلا إلى القرية المجاورة حيث تسكن جدته.. زيارة بسيطة أَلِفها منذ الصغر وحتى هي ألغيت، وكذلك لا يخرج إلا لضرورة الاستشفاء إن كان مريضا، لكنه الآن وبعد أن بدأ يكتب في مجموعة "كشفوك" علم أنه لابد له من الخروج من قوقعته التي دفن رأسه فيها طيلة خمس عشرة سنة ـ وما كان ذلك الدفن إلا لتخرج البذرة شجرة يانعة ـ لقد ذكرته أيامه الماضية وزهده في الظهور والسفر والمتع الدنيوية بالفيلسوف (كانط) الذي لم يخرج من بلدته ـ المهم هو الآن في البيت الكبير عند الأخت الطيبة.

قالت (مروى): أهلا بك يا أخي، كم طال غيابك !

_ لا تحزني.. من الآن فصاعدا أنا معك في المدينة الكبيرة، المدينة القريبة من وسائل الإعلام حيث سأصبح مشهورا بسبب مجموعة "كشفوك" التي ستكتسح العالم العربي.

_ يا لك من متفائل كبير يا أخي، أمن المرة الأولى ستصبح مشهورا؟! من المجموعة الأولى ستصبح ظاهرا؟!

_ ولم لا؟! أليس لي حق في الحلم، على الأقل الحلم مجاني فلم لا أحلم؟

_ أنت وقصدك يا أخي لكن اجعلني أنا أول من يقرأها.

_ بالطبع.. بالطبع.. كوني على استعداد.

وضعت (مروى) الشاي والحلويات والمكسرات... وبدأ (جمال) في الأكل. كان (جمال) محبا لكرة القدم عندما كان صغيرا، كان يلعبها بمهارة، كما أن بنيته الجسدية آنذاك كانت متناسبة؛ فكان يلعب ضد الواحد والثلاثة مباراة فيفوز بسهولة، كان لاعبا ماهرا مثل نجيب محفوظ في أيامه -ولم لا يصير هو كذلك نجيب محفوظ ثان؟ فيكتب مثله ويحصل على مثل ما حصّله؟- لكن بعد أن كبر قليلا بدأت هوايته لكرة القدم تقل؛ طبيعي فحتى أصدقاءه الذين كانوا يلعبون معه نفروا من اللعب، لقد صاروا كبارا، فالوداع للعب العيال. بسبب ذلك قلت حركته فأصبح سمينا خصوصا وأنه من محبي الحلويات والسناكات. وهو الآن بعد أعوام يأكل من طاولة أخته التي تريد أن تكرمه بالأكل الطيب.. لكنه قال لها:

_ يا أختي الجميلة، لن آكل كثيرا سآكل المكسرات فقط والأشياء المفيدة، أما الحلويات فأنا منها بريء إلا قليلا جبرا للخواطر، أما السناكات فلا.. فقد طلقتها الطلاق الثلاث، والرحمة على من مات.

_ كما تحب يا أخي، فأنت الآن مشدود البطن مستقيم الظهر، وكأنك رياضي محترف، تأكل قليلا حتى تبقي على صحتك التي فقدتها لسنوات في السنوات السالفة.

_ الحمد لله.

توجه (جمال) لغرفته في منزل أخته، وانكب على إكمال ما بدأه من القصة الأولى في المجموعة والتي يقول فيها:

" أن (راشد) ذهب عند أخته (سلوى) التي تعيش في المدينة الكبيرة عيشة رغيدة في أحد الأحياء الراقية، إنها مهندسة كبيرة عطوف طيبة القلب، لم يخرج (راشد) من مدينته طيلة حياته إلا ما كان من ذهابه عند جدته في البادية أو الاستشفاء إن كان مريضا، لكنه بعد أن بدأ يكتب في مجموعة "كشفوك" علم أنه يجب عليه

الخروج من قوقعته والسفر عند أخته آملا في البروز في وسائل الإعلام بعد أن يستكمل المجموعة، لذلك قال لأخته بعد أن أسفرت عن امتعاضها من غيابه:

_ لا تقلقي فأنا معك الآن دائما، لأني سأصبح كاتبا مشهورا بواسطة هذه المجموعة التي أكتبها؛ مجموعة "كشفوك".

قالت: يا لك من طَموح كبير! أمن الكتابة الأولى؛ من المجموعة الأولى تريد أن تصبح مشهورا؟!

_ لم لا؟ ألا يحق لي أن أحلم، على الأقل الحلم مجاني فلم لا أحلم؟

_ أنت ومرماك، لكن اجعلني أول من يقرأها.

_ بالطبع.. بالطبع، وهل عندي من أخت غيرك.

_ بارك الله فيك.

وضعت (سلوى) صينية الأكل من شاي وحلويات ومكسرات... ودعت أخاها للتناول، لكنه أجابها أنه لن يأكل إلا المكسرات والأشياء المفيدة وأن الحلويات لن يمسها إلا شيئا قليلا جبرا للخواطر أما الأشياء الأخرى فلا. كان (راشد) لاعبا ماهرا في كرة القدم لكنه تركها بعد أن شب وكبر قليلا، عزفت نفسه عنها وحتى أصدقاءه لم يعودوا يلعبونها، وبالتالي مع الأكل أصبح سمينا. لذلك هو الآن عند أخته يرفض الأكل المضر لذلك قال لها:

_ يا أختي الظريفة، لن آكل إلا قليلا أريد أن أبقي على صحتي، مشكورة على مجهودك شكرا لك.

_ كما تحب يا أخي فأنت الآن متناسق جسديا معافى في صحتك والحمد لله.

_ الحمد لله."

كان هذا ما وصل إليه (جمال) من القصة الأولى من المجموعة؛ تعب قليلا فالكتابة قد تبدو للقارئ سهلة لكنها صعبة بدون مبالغة، مثل غابرييل غارسيا مركيز عندما قال بعد أن أتم إحدى رواياته الضخمة لأصدقائه: هذه الكتابة لا تتم حتى تستنزفك و تضعف قواك.

لذلك رمى نفسه على السرير ونام.

*****

5

وهو في نومه العميق –جمال- رأى أحلاما ورؤى عجيبة، لقد رأى أنه أصبح كاتبا مشهورا، وأن المجموعة القصصية لقيت استحسانا من القراء، وأن الدنيا ابتسمت مرحبة به في عالم الأدباء، وأن المال بدأ يأتيه من كل مكان؛ بعد أن كان عائلا لا يملك شيئا. كل هذه الأشياء كان من المفترض أن يستيقظ بعدها منشرح النفْس طيب النفَس، لكنه أصبح منقبضا حزينا، لقد تذكر ما قاله لأخته نهارا، ربما هذه الرؤى مجرد انعكاسات ظهرت في أحلامه انطلاقا مما كان يقوله. عندما رآها مجسدة في المنام حزن كثيرا، ماذا لو فعلا نجحت هذه المجموعة وأصبح كاتبا عالميا، ماذا لو أصبح وجها معروفا في الإعلام... ماذا لو؟ تفكر قليلا ثم تذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: "فوالله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسطت على من كان قبلكم، فتتنافسوها كما تنافسوها، وتُهلككم كما أهلكتهم" هذا ما يخشاه (جمال) لكنه اطمأن لأن المال الصالح هو نعمة للعبد الصالح.

لا يمكنني أن أبقى متيّها لكم بين (جمال) و(راشد) فهما على أية حال متشابهان ولو بمحض الصدفة، ولا يمكنني أن أستمر في السرد لأني تعبت، أما بالنسبة للمجموعة القصصية فقد نجحت وانتشرت، ولم يصبح (جمال) و لا (راشد) من الأثرياء فمن يقرأ بالله عليك الآن؟ أصبح الاعلام مليئا بالنساء المصبوغات والمسلسلات المضلات، أما الثقافة فمكانها ذلك القدر اليسير من الزمان أيام الأحد بعد العصر حيث لا يشاهدها أحد. والله المستعان.